قصة قصيرة

سيرةُ شَبِّيحٍ خايِس

موسى الحالول ❖

بالأمس عادت بي ذاكرتي إلى أحد أيّام طفولتي واكتشفتُ، وا خجلتاه، أنني في ذلك اليوم عملتُ شَبِّيحًا. صحيح أنّ كلمة «شبّيح» لم تكن معروفةً كما هي الآن، ولكن ما قُمتُ به فعلُ تشبيحٍ بلا منازع. وهذه ريادةٌ يتيمة تُسجَّل لي في مسيرة حياتي العمليّة التي خرجتُ منها مبكّرًا. غير أني لم أخطُ أكثر من خطوةٍ واحدة في تلك المسيرة، وذلك لضعفٍ في شخصيّتي. وهذا الضعف هو الذي جعلني قليلَ الحُظوة في كثيرٍ من محطّات حياتي، فأوصلني إلى المآل الذي أنا فيه: مجرّد أستاذ جامعيّ يعمل في تدريس الشعر الإنجليزيّ لكسب رزقه في المنافي، بينما غيري بقصيدة مديحٍ عربيّة واحدة ارتفع إلى أعلى المراتب ولم يغادر البلاد إلا لقضاءِ نقاهةٍ هنا أو عطلةِ استجمام هناك، وعلى نفقة الدولة. ولطالما ظلّت هذه المفارقات بين حظوظي وحظوظ غيري مسألةً يُعَيِّرني بها أهلُ قريتنا ومناسبةً لينادوني فيها «يا خايس.»

ولكنْ ماذا أفعل وقد جبلني الله ضعيفًا؟ فمثلاً، كنتُ أبكي في صغري كلما سمعتُ والدي يُنشد واحدًا من أناشيد الحصاد وهو يَدْرُس بيدرَنا كلّ صيف. كان والدي ميّالاً إلى الشعر النبطيّ، فيردّد أبياتًا من قصائد نمر بن عدوان أو عبد الله الفاضل الملحم الذي تركتْه عشيرته، مع أنه زعيمها، وارتحلت إلى مَكْحول هربًا من الجُدريّ الذي أصابه. وكان أكثر ما يُشجيني قصيدته التي قالها حين أفاق من غيبوبته ووجد أنّ قومه لم يتركوا له إلا جُرحًا غائرًا في القلب وكلبًا اسمه شِيْر وجزورًا مذبوحةً لعلّهم جعلوها رشوى للكلب لكي لا يترك صاحبَه تحت رحمة الوحوش، فقال يرثي نفسه: «هَلَكْ شالَوْ على مكحول يا شير ...» كان أبي يتأسّى بأشعارهم فيُشجيني، فتنهمر دموعي رغمًا عني، فأصير مضحكةً لإخوتي الكبار.

❖❖❖

أذكر أنني أحضرتُ لوالدي ذات يوم إبريقًا من الشاي وصُرَّةً من الأكل. وحين وصلتُ إلى حافة البيدر، وضعتهما على الأرض، وخلعتُ حذائي لأن أبي علّمنا أنه حرامٌ أن ندوس النعمَة بأحذيتنا، وقفزتُ وراء الجَرْجَر وأمسكتُ بعارضته الخشبيّة الخلفيّة.

وأنا أمشي وراء الجرجر الدائر على فراش البيدر مثل عقارب الساعة، رحتُ أراقب بذهولٍ حركة أسطوانَتَيْهِ المُسننتيْن وهما تلتهمان حُزمَ السنابل الجديدة التي كان أبي قبل قليل يتناولها بالمذراة من رأس البيدر وينثرها خلف الجرجر الذي يجلس عليه. كان والدي يُنشد كعادته، وأظن أنه لم يكن ينوي الترجّل لغدائه حتى ينتهي من أنشودته الحزينة. فجأةً أحسستُ كأن شُواظًا من جحيمٍ اخترق إبهام قدمي اليسرى، وصرختُ بأعلى ما استطعت. ولكنّ أبي السادرَ فوق جرجره ظلّ يُنشد بصوته الحزين: «الله على فِتجال مَعْ سَجّة البال...» غيرَ آبهٍ لبكائي، ظنًّا منه أنها واحدةٌ من مَخازِيَّ المتكررة في مواسم الحصاد والإنشاد. ولم يدرك أنّ الأمر جِدٌّ إلّا حين أكمل الحصانُ دورته وحَرَن حين رآني مستلقيًا أمامه على فراش البيدر وأنا أناشده بيدٍ صغيرة خرقاء ألا يدهسني بحوافره. لقد شلّني الألم عن الابتعاد عن طريق الحصان، وخشيتُ أن يمرّ والجرجرُ المسنن المثقّل بجسد والدي فوق جسدي الناحل الصغير فيمزّقه مِزَقًا. ولكن من لطف الله بي

❖ كاتب سوريّ.

أن هيأ لي حصانًا لم تُلْهِهِ أغاني البشر عن فطرته، فكان أسرعَ من والدي إلى إدراك الكارثة التي توشك أن تفتك بي. قفز والدي عن جرجره، وحملني بعيدًا عن فراش البيدر. وحين وسَّدني على صُرّة الطعام، راح يتفقّد مصدَر الوجع، فوجد عقربًا سوداء ما زالت عالقةً بإبهام قدمي. قال لي إنها ماتت بعد أن أفرغت كاملَ سُمِّها فيَّ، ولم تتكسر شوكتها، كعادة العقارب، لأنّ لحمي كان غَضًّا.

شقّ أبي شريطًا من ثوبه، وربط به إبهامي ليمنع انتشارَ السمّ إلى بقيّة جسمي، ثم حملني بين يديه إلى البيت وهو يبكي. لم يكن في قريتنا طبيبٌ، والسيّارة الوحيدة التي تذهب مرةً واحدة في اليوم إلى المدينة قد عادت منها للتوّ. لذلك أخرج شفرةَ «ناسيت» جديدة، ثم طلب من أمي أن تُغمض عينيّ، وراح يبذح إبهامي المتورّم ليُخرِج السمّ والدمَ الأسود المحتقن. وبعد أن عَصَر الإصبع وخفّ احتقانه، أكبَّ على إبهامي يَمصُّه. ولكنّ شفتيْ أبي كانتا متشقّقتيْن، وبمصِّه لإصبعي المسموم كان يعرّض نفسَه للخطر أيضًا، لذلك طلب من أمي أن تأتيه بقدر الحليب، فراح يغرف منه ويتمضمض إلى أن نظف فمه من آثار السم. وعملتْ لي أمي عريكةً من الشعير وضمّدتْ بها كامل قدمي، وظلّت هي وأبي طوال الليل يواسيانني بالبكاء والدعاء.

❖❖❖

حين دخلتُ المدرسة في نهاية ذلك الصيف، كان أبي يحرص على أن أتفوّق فيها. ولكنّ تفوّقي كان مجلبةً للنحس والاحترام في آنٍ معًا. ففي بعض الأحيان، كان الأولاد الأكبر مني سنًّا أو حجمًا يتنمَّرون عليَّ، ولكنني كنتُ أحظى باحترام الأساتذة والمدير، وكان هذا كافيًا لردع بعض المتنمّرين، على الأقل ضمن أسوار المدرسة. أما خارج المدرسة، فلم يكن لي من مغيثٍ إلّا رحمة الله وسرعتي في الجري.

انتقلتُ إلى الصف الثاني الابتدائيّ بتفوّق، ولاسيّما في الإملاء والخطّ. وكان أستاذي قد قرّر منذ الأسبوع الأول أن يُعَيِّنني عريفًا على الصفّ تقديرًا منه لتفوقي، لكنني سرعان ما اكتشفتُ أنني لا أصلح لهذا المنصب الذي وضعني في صِدام مباشر مع الأولاد الأكبر مني حجمًا. رجوتُ الأستاذ أن يُعفيني، فرفض. أعلمتُ أبي، فجاء إلى المدرسة ورجا الأستاذ أن يعيّن من هو أصلح مني. سمعتُ الأستاذ يُجادله في ضرورة «صقل شخصيّة التلميذ القياديّة،» ولكنّ أبي أصرّ على موقفه، فأُعفيتُ من ذلك الشرف. وظلّ الأستاذ، للأمانة، يتباهى بي أمام بقيّة الأساتذة ويدعوني في أثناء الاستراحة إلى غرفة المعلّمين أو إلى مكتب المدير ثم يطلب إلى زملائه أن يُملوا عليَّ ما يشاؤون من النصوص، وأنا أكتبها بلا أخطاء، رغم أنني لم أكن أفهم معظم مفرداتها.

❖❖❖

بعد حوالي شهرين من بدء العام الدراسيّ، وَفَد على مدرسة قريتنا الابتدائية معلِّمٌ جديد من إحدى المدن الكبيرة البعيدة. وبعد حوالى أسبوع يبدو أنّه سمع بموهبتي في الإملاء والخطّ، وتراهَنَ مع المدير على أمرٍ لم أعلم به إلّا حين جاء صبري، سَقّاءُ المدرسة، إلى صفّنا يحمل قصاصةً من المدير تستدعيني إلى مكتبه.

سألني، «أنت صالح؟»

ـ نعم.

ـ اذهب مع خالك إلى الصفّ السادس.

خالي؟ حتى هذا الوافد الجديد يعرف أنّ السقّاء صبري خالي؟ في الحقيقة لم يكن صبري خالي، بل من أقرباء أمي، ولكنّ الأشقياء في المدرسة كانوا يُصِرّون على إلحاقي به لأنه كان قزمًا. وكلما لاجَجْتُ أنه ليس خالي، ازداد الأشقياء والمتنمّرون إلحاحًا أنّه خالي ويعمل في مهنة معيبة، وأنني ابنُ أخته مهما أنكرتُ نسبي بذلك المَشْروك، أي الجِنّ الساكن في جسد بشريّ. وكان من عادة أهل قريتنا أن يعطوا لكلّ واحدٍ منهم لقبًا يتنابزون به، ويظلّون يعملون على إشاعته بين الناس إلى أن ينسى هؤلاء اسمَه الأصليّ. ولأنّ صبري كان القزم الوحيد في قريتنا، فقد خصّه أهلُها بلقبين تخليدًا لتميّزه: الأول مشروك، والثاني صوصي.

كان صبري يجلب الماء بالدِّلاء من نهر الفرات على ظهر حماره مرتين أو ثلاثًا كلّ يوم. وإذا صادف خروجُ التلاميذ للاستراحة وقتَ إفراغ دلائه في البرميل الموضوع في زاوية الباحة، كان يلجأ إلى خيزرانته ليُفرغ جامَ حقده عليهم. وما أرشده إلى استخدام الخيزرانة هو أنه كان في يوم من الأيام قد جلب حمولته الثالثة والأخيرة، فتقدّم منه أحدُ الأشقياء الضخام في الصفّ السادس، وأمسك له برقبة الحمار، بينما استدار هو وراء الحمار

ليُنــزل الدلويــن الكبيرتين برفعهما عن ظهره وسحبهما معًا إلى الــوراء. وحين أوشكت الدلوان على الانزلاق عن وِرْكَــي الحمار، أخرج الشقيّ بوقًا صغيرًا ونفخ فــي أذن الحمار نفخةً أطارت صوابه، فرفس صبري الواقفَ خلفه وطرحه أرضًا، وانسكب الماء على أرض الباحة العطشى.

حين أقبلتُ أنا وصبري على قاعة الصفّ السادس، رآنا عريفُ الصف فهبَّ نحو الباب وصاح بالتلاميذ:

- انتبيييييييييييييييييييييييه! قِيام!

هبَّ الأشقياء واقفين وهم يتضاحكون. استدار كبير الأشقياء نحو الباب بحركة متكلّفة مضحكة ورفع يده اليمنى تحيّةً للقادمَيْن، ثم قال مزمجرًا:

- فصيلة الطلائع جاهزة للتفتيش، سيدي الصوص المشروك!

كانت هذه لغةً جديدةً لم نسمعها قبل شهرين. وقفتُ خارج الباب مذهولاً، وعاد المشروك راكضًا ليأتي بالخيزرانة ليلقّــن هــؤلاء الأشقياء درسًا لن ينسوه سريعًــا، ولكنّ الأستاذ أقبل على صفّه فأنقــذ أشقياءه من العقاب الأليم. أجلسنــي في أحــد المقاعد الأماميّة، وأخــرج من جيب سترته جريــدةً، وقال للتلاميذ وأنا مــن بينهم أن نستعدّ للإمــلاء. لم أعد أذكر من النص المذكور سوى عبارات تتحدّث عن قيادتنا الحكيمة وتصدّيها لكافّة المؤامرات التــي تحيكها الإمبرياليّةُ العالميّةُ للنيــل من صمود شعبنا وحَرْفِنا عن قضيّتنا المقدّسة، قضيّةِ العرب المركزيّة، قضيّــةِ فلسطيــن السليبة. وما ساعدني على تذكّر ذلك النصّ هو أنني ظللــتُ أسمعُ مثيلاته ثلاثين سنةً بعد تلك الحادثة.

صحّــح الأستــاذ أوراقَ الإملاء فورًا، ولم ينــل الدرجةَ التامّةَ إلّا ثلاثةٌ كنتُ واحدًا منهــم. احمرَّ وجهه وراح يُرغي ويُزبد، وهو يقول: «ليست المصيبة في أنكم أخطأتم في الإملاء، المصيبة أنكم في خطئكم هذا أخطأتم في حقّ الوطن وقائده. إنّ ما اقترفتموه خيانة في حقّ الوطن تستحقّون عليها أقصى العقوبات! ألا تستحون أنّ صالح هذا، ابــن أخــت صوصي المشروك، يعرف الكتابة خيرًا منكم مع أنه في الثاني الابتدائي وأنتم في السادس؟» ورغم أنّ الأستاذ برّأني من تلك التهمة الخطرة، فإنني لم أستطع إلا أن أرى نفسي مشمولاً بها. لكنّ تَوَهان فكري لم يَطُل، إذ ناداني الأستاذ مزمجرًا: «صالح، اذهب إلى خالك وائتِني بالخيزرانة!» خالي؟ حتى أنت يا صائد الخَوَنة!

لبّــى «خالــي» الطلبَ بكلّ ســرور، وكانت سعادته أكبــر من حجمه القــزم أضعافًا. سلّمتُ الأمانــةَ طالبَها، ولكني تفاجــأتُ بــأنّ الأستاذ أمرني أن أبقيها في يدي. ثم أخرج زميليَّ الآخريْــن المُستثنيْن من تهمة الخيانة العظمى، وأوقفهما بجانب السبّورة التي لا توجد فيها بقعة سليمة تكفي لكتابة جملة من غير أن تعترض مسيرتَها حفرةٌ هنا وحفرةٌ هناك. أمر الأستاذُ الخونةَ بالوقوف ومَدِّ أيديهم لتلقّي عقوبة مخفّفة هذه المرة، ثم التفت نحوي وأمرني بإنزال العقوبة بهم.

- ولكنْ ما دخلي أنا يا أستاذ؟

- نفّذ ثم اعترض، يا صالح!

لــم أفهــم مقصده، فشرحه لي بلغة بسيطة. علمــتُ حين كبرت أنّ ما قاله كان تعبيــرًا عسكريًّا. ولم أجد مناصًا مــن تنفيــذ ما أمرني به. قلت: «بسم الله الرحمن الرحيم، توكّلنا على الله.» ضحك الأستاذ من سذاجتي، وبدأتُ ألسع الخونةَ الأوباشَ بالخيزرانة، وشعرتُ بشيءٍ من الزهو والتشفّي من اثنين كانا يضايقانني باستمرار. انتهيتُ مــن أول وجبةٍ مــن خَوَنة المَقْعَدين الأماميَّيْن في الصفين الثالث والثاني. وحيــن اتجهتُ إلى المقعد الأول لأذيق محتلّيــه مــا طاب لي من العقاب، فوجئتُ بأنه لم يكن في المقعد إلا قاسم أو «عوجان» كما كان يلقّبه أهلُ قريتنا. كان قاســم هذا معوّقًا في أطرافــه الأربعة. وكان أبوه وأبي صديقين حميميــن، وجاريْن في الحقول. ولكنني عبدٌ مأمور، وعليَّ أن أنفّذ ما أمرني به أستاذنا.

حيــن اقتربت منه وأنــا أَهُمُّ بضربه على يديــه، نظر إليَّ نظرة استغــرابٍ واستهجان. ثم بادرنــي بدمعتيْ عتابٍ، فتحشرجــت الكلماتُ في حلقــي، وأحسستُ بقواي (المُكتسَبــة حديثًا) تنهار أمام ضعفه. أطلقــتُ ساقيَّ للريح، باتجــاه بوّابــة المدرسة المفتوحة، ودسستُ الخيزرانةَ بين ركام الخرائب علــى يمين البوّابة من الخارج، وتابعتُ جريي نحو البيت.

بعد أن أصبحتُ في مأمنٍ من أن يلحق بي أحدُ العَدّائين الشّداد من المدرسة، جرجرتُ قَدَمَيَّ على غيرِ ما عجلٍ، فصادفنــي أحدُ وجهاء حَمولتِنا، وسألني عن سبب عودتي المبكّرة من المدرسة. قصصتُ عليه الخبر بشيءٍ من الاختصار والتنقيح، فهزَّ رأسه مستنكرًا تَرْكي فرصةً سانحةً، ثم بصق عليَّ وهو يقول: «خايس!»